

الاتجاه الأفلاطوني في رواية "الحمار الذهبي" لأبيلوس المداوروشي

د. نور الدين هالي.

قسم الفلسفة، جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري

Summary

The Metamorphosis or The Golden Ass is the most novel celebrated of all the works of Apuleius and the importance philosophy of Plato in this novel through the myth of Eros and Psyche and its probably one of the best love stories in classical mythology. The myth of Cupid or Eros and Psyche because in the former, as it appears, the very ancient dogma of the pre-existence of the human soul, its lapse from the intelligible world to the earth, and its return again from thence to its pristine state of felicity which the world divine beautifully. We adumbrate to another thinks in the novel of Golden Ass are derived from the Plato philosophy and ancient pagan religions.

ملخص

تعد رواية التحولات أو الحمار الذهبي أشهر أعمال أبيلوس، ففيها تبرز مكانة فلسفة أفلاطون من خلال أسطورة الحب والنفس، إذ يرجح أن تكون هذه الأسطورة واحدة من أفضل قصص الحب في الأساطير القديمة، حيث قدمت تفسيراً لكيفية تشكُّل النفس والحب، وتبدو أنها معتقد جد قديم يعود إلى ما قبل ظهور النفس البشرية، التي هبطت من العالم المعقول إلى العالم الحسي، ثم ستعود مرة أخرى إلى مبدئها السامي السعيد في العالم الإلهي الجميل. وللإشارة فإن رواية الحمار الذهبي في مجملها تتضمن أفكاراً مستمدة من فلسفة أفلاطون، ومن الديانات الوثنية القديمة.

مقدمة

يمكن تقصى النزعة الأفلاطونية لتوجه أبيلوس الفلسفي في رواية الحمار الذهبي من خلال توظيفه للأساطير اليونانية من جهة، ومن نظرتة إلى طبيعة النفس ومفهومه الصوفي للخلاص من جهة أخرى، ولذا يتوجب علينا الانتقال من مجال السرد المفعم بالبلاغة والرموز والصور الفنية الإبداعية، إلى الخيال والتجريد الفلسفي، لسبر أغوار المعنى المتواري خلف الأسطورة ودلالاتها الرمزية. لقد وضعت

الاتجاه الأفلاطوني في رواية "الحمار الذهبي" لأبيلوس المداوروشيد. نور الدين هالي
رواية الحمار الذهبي في كثير جوانمها، أسس التقاليد الثقافية الغربية، كما أسست
لوضع الإنسان في العالم، ولطبيعة النظام الاجتماعي، ولمسألة روحانية النفس
البشرية ومصدرها الإلهي.

قدم أبيلوس قصة عميقة وشيقة حول حمار، عرضها في رحلة طويلة عبر العالم
الإغريقي الروماني. ولفك رموز هذا النص الروائي والوصول إلى إجابة عن الإشكال
الآتي: ما الدلالات الفلسفية لرموز رواية الحمار الذهبي؟ وكيف عبّر هذا العمل الأدبي
عن نزعة فلسفية أفلاطونية؟ قسمنا هذا المقال إلى عناصر، تشمل: لمحة موجزة عن
أبيلوس الروائي والفيلسوف الأفلاطوني، ثم عرضنا أبرز أحداث الرواية، وتحليل
عناصرها لإبراز المرجعية الفلسفية لها، وتطرقنا إلى سؤال الأخلاق والدين ونظرية
الحب والنفس عند أبيلوس.

1 - أبيلوس الفيلسوف الأفلاطوني

كاتب هذه الرواية هو لوكيوس أبيلوس Lucius Apuleius المداوروشي الأفلاطوني
(125م - 175م)، الذي يعد من أهم مفكري شمال إفريقيا خلال القرون التي سبقت
القديس أوغسطين. درس أبيلوس في قرطاج، ثم في أثينا، وارتبط بالأفلاطونية
المتوسطة، بل كان من أعضائها البارزين. ويبدو أنه كان متأثرا بالفيلسوف الأفلاطوني
بلوتارخ (Plutarque de chéronne) (45م - 125م). ويظهر أيضا تأثره بفلسفة أفلاطون
لاسيما محاوره طيماوس¹. كان أبيلوس أهم ممثل للتيار الأفلاطوني في الغرب اللاتيني،
وبالتحديد في شمال إفريقيا، وله تأثير كبير في تبني الأفلاطونية في هذه المنطقة، ومن
ثمة تأثيرها في آباء الكنيسة بعد وصول المسيحية إلى روما وشمال إفريقيا. عُرف عن
أبيلوس أنه كان خطيبا في قرطاج، أَلَّف الرواية الشهيرة: الحمار الذهبي (التحولت).
اهتم أبيلوس بأعمال أفلاطون ودراستها، وبفلسفة سقراط وما وصلنا من كتاباته لا
يخرج عن إطار مضمون الفلسفة الأفلاطونية وكل ما لديه من مؤلفات تؤكد
باستحقاق نزعة الفلسفية وشغفه بفلسفة أفلاطون وسقراط، وهذا ما جعله يسمي
نفسه أبيلوس الأفلاطوني المداوروشي، نسبة إلى توجيهه الأفلاطوني، ونسبة إلى
مداوروش* مسقط رأسه. ومن مؤلفاته نذكر: مؤلف "الأزاهير" Florida و"الدفاع"

الاتجاه الأفلاطوني في رواية "الحمار الذهبي" لأبيلوس المداوروشيد. نور الدين هالي
Apologia و"إله سقراط" De deo Socrates و"حول أفلاطون وعقيدته" De dogmate
Platone et eius وكذا مؤلف "عن العالم" De Mundo .

"الحمار الذهبي" The Golden ASS أو "التحولات" The Métamorphoses بينت مصادر فكره، وفلسفته في النفس وفي الجمال والميتافيزيقا. ترجمت رواية الحمارة الذهبي في العصر الحديث إلى لغات عدة، منها اللغة العربية، وكان هذا العمل محل اهتمام الأدباء العرب أكثر من اهتمام المشتغلين بالفلسفة، فنظروا إليها بوصفها قصة أدبية، دون التوسع في مضمونها الفلسفي الذي أراد أبيلوس أن يعبر عنه، تحت تأثير فلسفة أفلاطون ومجاراته للأفكار الأفلاطونية السائدة في عصره، لاسيما نظرية النفس والحب.

2 - المكانة التاريخية والقيمة الفلسفية لرواية الحمارة الذهبي

عُرفت رواية أبيلوس هذه باسم المسوخ أو التحولات أكثر مما عرفت بالحمارة الذهبي بالرغم من أنّ تسمية الحمارة الذهبي أطلقت عليها في عهد القديس أوغستين^{*} St. Augustine (354-430م)، وهي الرواية الرومانية الوحيدة التي حافظت على مكانتها إلى اليوم مقارنة بالروايات اليونانية كما أنها تعد من أول الروايات التي استلم منها الكتاب اللاحقون رواياتهم عن الرحلات مثل: رواية دنكيشوت ورواية جوليفير.²

ويبقى واضحاً لدينا أن مصدر هذه الرواية إغريقي، فقد عرفت بقصة لوكيوس وأونوس Lucios et Onos كما أخبر لوكيوس، لكنها تختلف عن قصة الحمارة الذهبي كونها تتضمن عدة قصص من قبل رواة مختلفين أخبرنا عنهم لوكيوس.³ وبصفته حمارة، استمع لوكيوس إلى عدد من الحكايات المنحطة أخلاقياً، ما كان ليسمعه في صورته البشرية، لينهي به المطاف إلى العزلة والتصوف بعد تدخل إيزيس. وقد عبرت رحلته عن تجربته الروحية، التي عالجت من خلالها مسائل أخلاقية، وعلى إثرها انتهت الرواية بمشهد التطهر بمياه البحر سبع مرات، وتناول الوُرد وفق ما رتبته إيزيس بالاتفاق مع زوجها أوزوريس، وحينها تحول لوكيوس من حمارة متفلسف - أو روح متنكر- إلى خادم للإلهة في معبد روما، وجاء تحول لوكيوس الأخير بعد رحلة شاقة للبحث من جهة عن الحقيقة، ومن جهة أخرى عن خلاص الروح من بدن الحمارة.

الاتجاه الأفلاطوني في رواية "الحمار الذهبي" لأبيليوس المداوروشيد. نور الدين هالي
وهكذا فإن الرواية بدأت بالتعلم وانتهت بالتجلي والعبادة، ويتضح هذا إذا عدنا إلى
بداية الرواية من خلال قول الراوي: "إذا كنت ممن لا يأنف من النظر في أوراق البردي
المصري التي كتبها بقصب النيل إلى درجت أنك ستعجب كيف يتخذ بعض الناس
أشكالا غريبة ثم يستعيدون صورهم الاصلية على شكل مغاير"⁴ وسنصل في نهاية
الرواية إلى مشهد تجلي الإلهة المخلصة إيزيس، إلهة بلاد النيل.

3 - أبرز أحداث رواية الحمارة الذهبي

تدور أحداث الرواية حول مغامرات بطلها شخص يدعى لوكيوس من مدينة
"كورنيث" ببلاد اليونان من خلال رحلة انطلقت من موطنه نحو "هيباتا" في مقاطعة
"تيساليا" أول محطات هذه الرحلة لقاؤه بمسافرين أحدهما يدعى سقراط والآخر
أرسطو وقد سمع لوكيوس من أرسطو حكاية عن الأعمال السحرية والحب والرغبات
الجنسية.

واصل بعدها طريقه حتى وصل "هيبتا" ونزل ضيفا على "ميلو" الرجل الثري
البخيل زوج الساحرة "بامفيليا". وطابت له الإقامة بعد ما اتخذ من الخادمة فوتيس
خليلة تأوي إلى مضجعه كل ليلة واستغل لوكيوس هذه العلاقة لاكتشاف فنون
السحر والشعوذة التي تمارسها بامفيليا فساعدته "فوتيس" على هذا الأمر وتمكن من
الإطلاع على أسرار وطقوس السحر، بل قرر أن يمارس بنفسه القيام بعمل يحوله من
هياته البشرية إلى هيئة طير، وطلب من "فوتيس" إحضار المرهم الذي يحول صورة
الإنسان إلى صورة طائر من غرفة سيدتها. لكن فوتيس أخطأت وجلبت إليه مرهما
آخر حوّل جسد لوكيوس إلى جسد حمار، فوعده "فوتيس" أن ينتظر حتى الصباح
لتحضر له الوزد الذي سيعيده إلى صورته البشرية. ثم قادته إلى الإسطنبول لبيت تلك
الليلة بجانب حصان ميلو. وقبل طلوع النهار هاجم اللصوص البيت وحملوا الأمتعة
المسروقة على الحصان وعلى لوكيوس الحمار، وبدأت مغامرات الحمارة الذهبي.

بعد وصول اللصوص إلى مخبئهم بأحد الكهوف الجبلية التحق بهم فريق آخر من
رفاقهم وكانت معهم فتاة اختطفوها للحصول على فدية مقابل أعادتها. أجلسوها إلى
عجوز كانت مقيمة لديهم في الكهف وأخذت العجوز تهدأ من روع الفتاة التي ظلت
تنوح حظها.

الاتجاه الأفلاطوني في رواية "الحمار الذهبي" لأبيلوس المداوروشيد. نور الدين هالي

روت هذه العجوز أسطورة: الحب والنفس، وهي أسطورة إغريقية تروي قصة زواج النفس "بسيشي" من إله الحب "أمور érôs" كانت النفس لا تتمكن من رؤية زوجها عدا أنها تحس بلمسه وتسمع صوته، لأن رؤيتها له سيتسبب في انفصالهما. لكن، النفس قد تملكها رغبة في رؤية الحب، فخالفت أمر زوجها عملاً بنصيحة شقيقتها الحاسدتين. وما إن أضاءت المصباح ورأته، وأصيبت بسهمه، حتى رحل عنها وتركها تواجه مصيرها مع والدته إلهة الجمال "أفروديت"، التي لم تكن راضية على هذا الزواج، لكن الإله "جوبيتار" تدخل، وأقيمت محاكمة حكم فيها بتثبيت الزواج بين الحب والنفس، ومنحها صفة الخلود صحبة إله الحب. وأخذت هذه الأسطورة حيزاً كبيراً في رواية لوكيوس فشملت نهاية الكتاب الرابع وكامل الكتاب الخامس وبداية الكتاب السادس، وبهذا يتضح لنا الدور المحوري لهذه الأسطورة في الرواية، وفي الفلسفة التي أراد أبيلوس أن يبرزها.

ما تبقى من الكتاب السادس حتى الكتاب العاشر يظهر محاولات لوكيوس للخلاص من جسد الحمار وما يرافقها من مغامرات ومعاناة، وكذا إطلاعه على أسرار الممارسات الجنسية والخيانات الزوجية. وفي ذروة عالم الغرائز وحكايات الرغبة والمتع الحسية سيجد لوكيوس البشري، طريق الخلاص من جسد الحمار ومعاناة لازمته مدة رحلته.

إثر فرار الحمار من حفل طقوسي ماجن، فُرض عليه فيه إقامة علاقة جنسية، وهو الحمار، مع بشر أمام الجمهور، قاده فراره إلى الشاطئ، حيث أغطس رأسه سبع مرات في مياه البحر ودعا إلهة السماء أن تحرره من جلد الحمار ثم استسلم للنوم، وفي منامه أشرقت عليه الإلهة "إيزيس" في هيئة البدر، وبشرته بأنها استجابت لدعائه شرط أن يقضي بقية حياته راهباً ناسكاً ومتعبداً مخلصاً، فقبل الشرط وتحقق له الخلاص، ووفي بوعده وانظم إلى هيئة الرهبان في معبد "إيزيس".

4 - المرجعية الأفلاطونية وسؤال الدين والأخلاق في رواية الحمار الذهبي:

في بداية الرواية يلجأ أبيلوس إلى تمجيد وإعلاء سقراط والعائلة الأفلاطونية، من خلال شخصيات تشير في أول قصة من قصص هذه الرواية إلى تأثر أبيلوس

الاتجاه الأفلاطوني في رواية "الحمار الذهبي" لأبيلوس المداوروشيد. نور الدين هالي
بسقراط فنجد اسم كل من سقراط وأرسطو مينوس يرمزان إلى التوجهين الرئيسيين
للفلسفة اليونانية في عصرها الذهبي.⁵

وتظهر النزعة الأفلاطونية في توجه أبيلوس الفلسفي، بداية من نظريته إلى
الأساطير اليونانية، وانتهاءً بنظريته لطبيعة النفس ومفهومه الصوفي للخلاص. وهذه
الرؤية نجدها لدى سقراط وتلميذه أفلاطون، فقد دافع كل منهما عن الأساطير
اليونانية، بالرغم من نقدهما لبعضها، وشاركا في الطقوس الدينية التي تقام في
المدينة، فأفلاطون يُقرُّ بالذهاب إلى الاحتفالات الدينية (327a République)، كما أشار
عدة مرات إلى طقوس دينية سرية، وغالبا ما كانت محاورات أفلاطون ترفض الشكوك
حول وجود الإله. وفي "السفسطائي" عارض منكري العناية الإلهية، وأكد على أن كل
ما في الطبيعة يصدر عن الإله (Sophiste 256c-e).

وفي السياق نفسه فإن أبيلوس سار على خطى سقراط حين وظف الأساطير التي
أوردها هوميروس على أنها حقيقة، حقيقة تخص القانون الذي تديعه الآلهة حول
العدالة بالتحديد، وهذا ما يكون على توافق تام مع فلسفة أفلاطون وفق ما رد في
محاورة غورجياس على لسان سقراط: «استمع إذن كما يقولون إلى قصة جميلة،
وقد تعتبرها خرافة ولكني أعتبرها قصة حقيقية، أنني أقدم إليك الأشياء التي أتحدث
عنها على أنها صحيحة، لقد اقتسم كما يقول هوميروس كل من زيوس وبوزيدون
وبلوتون فيما بينهم إمبراطورية أبيهم بعد أن تسلموها، وكان في عهد كرونوس قانون
يذيعه الآلهة إزاء الناس مازال قائما إلى اليوم: وهو أن من يموت بعد حياة عادلة
ظاهرة بأكملها، يذهب بعد موته إلى جزيرة السعداء حيث يقيم بمأمن من الشرور وفي
سعادة كاملة، وهذا بينما تمضي النفس الظالمة الكافرة إلى مكان التكفير والعذاب،
وهو ما يسمونه الترتار»⁶. لهذا، يمكن القول بأن الأساطير في الثقافة اليونانية وعند
سقراط تشكل نبوءة فلسفية ويجب أن تؤخذ بأكملها.⁷

وعلى المستوى الأخلاقي فأول قصة في الكتاب الأول كانت تسمية شخصياتها ترمز
إلى شخصيتين فلسفتين لهما أهمية كبرى في تاريخ الفكر البشري سواء أكان ذلك
على المستوى المعرفي أم على المستوى العملي. وعلى قدر أهميتهما، فإن مواقفهما من
تلك المسائل مواقف متعارضة وهاتين الشخصيتين هما أرسطو وسقراط، فالأول

الاتجاه الأفلاطوني في رواية "الجمار الذهبي" لأبيلوس المداوروشيد. نور الدين هالي
حسي ينطلق من الجزء نحو الكل. أما الثاني أي "سقراط" فهو فيلسوف الفضيلة
الذي رأى أن الكليات مصدر الحقيقة وأن الجسد هو سبب معاناة روح الإنسان وأنه
لا خلاص للروح إلا بخلاصها من الجسد ورغباته الهيمية. وبالتالي فإن الراوي وضع
الأرضية الفلسفية التي ستجرى وفقها أحداث الرواية، كما أن الحوار الذي دار بينهما
ويوحى بالقضايا التي ستتناولها. مثل الانقياد للشهوات والانغماس في الرغبات
الحسية واللذة الجسدية التي تسببت للنفس متاعب جمّة، ويتضح هذا من خلال
عتاب سقراط لأرسطو بقوله: "لأنك اندفعت وراء شهواتك وانقدت لامرأة بغي،
وتخلّيت عن زوجتك وأطفالك".⁸

إن هذا الحوار الذي دار بين أرسطو مينيس ولوكيوس في نهاية القصة الأولى يؤكد
توجه لوكيوس المخالف لأرسطو مينوس، الذي يرمز إلى أرسطو طاليس، ويؤكد، أي
لوكيوس، إعجابه بموقف سقراط في هذه القصة من الرواية وسقراط يرمز به إلى
سقراط أستاذ أفلاطون.⁹ ويبرز مدى تأثر لوكيوس بسقراط الفيلسوف حين خاطب
سقراط الرواية قائلاً: يا عزيزي سقراط لقد أوقعت الاضطراب في نفسي... وإنما أحس
أن دبورا لدغني.¹⁰

وكان سقراط الفيلسوف قد وصف نفسه في محاورته الدفاع التي نقلها أفلاطون
بالدبور الذي يلسع الناس حتى يستفيقوا، ومما سبق يظهر الجانب الديني عند
أبيلوس والذي يستند إلى دعوة سقراط، وهي دعوة تحمل رسالة أخلاقية إلهية -
بحسب اعتقاده - لأنه كثيراً ما تحدث عن الوحي الذي يلزمه منذ طفولته، من خلال
الصوت الذي يهتف إليه، لينهاه عن أداء بعض ما قد يعتزم أداءه.

والتجربة الفعلية لاختبار ميول النفس في بداية رواية الجمار الذهبي، تبدأ بتجربة
لوكيوس الشخصية مع فوتيس خادمة مضيفه ميلو، وهي ترمز إلى اللذة الجسدية
والانغماس في الرغبة الجنسية، لقد حذرته من نفسها قائلة: أغرب عن وجبي أهما
الأحمق، ابتعد عن موقدي ما أمكنك ذلك فلولهبتك ناري لتحولت إلى شعلة من نار.
ولما استطاع أن يطفأ جذوتك أحد غيري".¹¹ وهذه البداية تتعارض مع النهاية
الصوفية التي انتهت إليها الرواية.

الاتجاه الأفلاطوني في رواية "الحمار الذهبي" لأبيلوس المداوروشيد. نور الدين هالي

تظهر دلالة المرأة الساحرة التي ترمز إلى طريق الشر أو الشيطان، الذي يدفع النفس إلى التعلق بالملذات الزائلة، من خلال حديث لوكيوس عن زوجة ميلو المشعوذة، وعن عرافتها وعن مصباحها السحري الذي تستمد منها تنبؤاتها.¹² كما يبدو أن لوكيوس يربط هذا النوع من العرافة بفلسفة هيراقليطس (Héraclites 480 - 540 ق م)، وليس غريباً أن تكون نار المصباح مستمدة من النار الكونية العظيمة يقول في الرواية: "فمهما كانت هذه النار صغيرة ومن صنع الإنسان فإن لها علاقة متينة بتلك النار السماوية العظيمة التي انحدرت منها، ولذلك فإنها لا تعرف ما يطرأ على الأثير من تغيرات فحسب، وإنما تظهرها لنا قبل حدوثها".¹³ وقد أشار هيراقليطس إلى قدسية النار التي رأى فيها الإله الأعظم الذي لا يفنى، في حين تفنى جميع الآلهة.¹⁴

إن لحظة تحول لوكيوس إلى حمار أو مسخ حمار يعود بنا إلى عقيدة التناسخ ومفهوم تطهير النفس، سواء عند الهنود أم عند الفيثاغوريين، ففكرة التناسخ تشكل موضوعاً له مكانته في الديانات اليونانية والرومانية السرية، وهي في الأصل، كما أشرنا، عقيدة هندية ظهرت حوالي 1500 ق م، وهكذا فإن تقمص روح لوكيوس لجسد الحمار جاء كمرحلة من مراحل التقمص لتطهير النفس وتحقيق الخلاص، وهكذا تصبح الممارسة الأخلاقية هي ما يحدد مسار الروح ووضعها بين الأنفس الخيرة والأنفس الشريرة، فأفلاطون كذلك وظّف عقيدة التناسخ الأورفية ليُبرز مصير النفس. إذ لا سبيل للحديث عن العقاب أو الثواب دون تجسده في شكل محسوس، لكن ما يظهر من جَمْع مختلف المعطيات التي تطرحها محاورات أفلاطون أن النفس بعد خروجها من الجسد تجازا بالجزاء الذي يتناسب مع فعلها حينما كانت في صورتها البشرية.

5- الحب والنفس

تعد قصة الحب والنفس أطول قصص الرواية، وتخبّرنا عنها عجوز خلال سرد شفوي لأسطورة الحب (الإيروس) والنفس (بسيشي) أثناء حراستها لفتاة خطفها للصوص، استعملتها لتسليّة الفتاة والتخفيف من حزنها، كان لوكيوس كحمار يستمع للقصة، إنها قصة عالمية من الأساطير الإغريقية تحمل رموزاً متعددة ودلالات مختلفة، وردت وفق تصور فلسفي أفلاطوني.¹⁵ وقد خضع هذا النوع من الأساطير

الاتجاه الأفلاطوني في رواية "الجمار الذهبي" لأبيليوس المداوروشيد. نور الدين هالي
للتأويل، فكان علم اللغة دائما هو الوسيلة إلى البحث في مثل هذه الأمور، هنا في
عالم الأشباح والأرواح وفي الميثولوجيا المتعالية، يفترض أن دلالة أي كائن أسطوري
يمكن معرفتها من اسمه، وفكرة أن الاسم والدلالة يحملان علاقة ضرورية وداخلية
فيما بينهما، وأن الاسم لا يدل على الشيء فحسب، بل هو دلالة الشيء فعلا.

لقد عبرت الثقافة اليونانية عن هذه العلاقة بين الحب وعشق النفس للجمال
من خلال أساطير دارت أحداثها في عالم الألوهية، أبطالها من الآلهة، وشاركهم فيها
بعض البشر، ولذا لا يمكننا وضع حدود فاصلة بين الأسطورة واللوغوس.¹⁶ وقد
حاول الفلاسفة تقديم إجابات عن طبيعة العلاقة بين الحب والنفس والجمال،
وتأسيس مفاهيم تضبطها وتفسر معانيها، لكنها لم تخرج عن إطار الأساطير التي عبرت
عنها الثقافة اليونانية. وفي هذا المنحى وردت قصة الحب والنفس في رواية الجمار
الذهبي، وهو منحى يستند إلى رأي أفلاطون لاسيما في محاورتي "المأدبة" و"فايدروس".

يستمد أبيليوس مفهومه للحب من نظرية الحب عند أفلاطون التي تقوم على
العلاقة بين النفس والجمال، فالنفس بعد أن تتشبع بجمال الأجساد ترقى إلى جمال
النفوس، لتدرك بعد ذلك الجمال الحقيقي والخالد، الذي وصفه أفلاطون بقوله: «
جمال لا يظهره وجه ولا يدين ولا كل ما هو جسدي، جمال لا يضاهيه فعل ولا
يماظره علم ولا أسمى موجود، جمال لا يظهر في حيوان ولا في أرض ولا في سماء ولا في
ما يشبه ذلك من الأشياء، بل يظل في ذاته أزليا يماثل ذاته، تشاركه جماله كل
الجماليات الأخرى».¹⁷

وإن ما يقود النفس إلى الارتقاء لإدراك ذلك الجمال هو "الإيروس" - الحب-
فإنسان لا يلد إلا في الجمال بتأثير من ذلك الحب. ثم أن نزوع النفس للاتحاد
بالجمال المطلق ورغبتها في الخير يجعلها، تزدي الجمالات الجزئية في العالم الحسي،
للبحث عن الجمال الحقيقي، فالنفس تتحد مع الخير للبحث عن اللذة عند تجاوز
جميع الجزئيات الحسية.¹⁸

بالعودة إلى مفهوم الحب الذي تحدث عنه أفلاطون، فهو في النهاية حب للحكمة،
والبحث عن الجميل بحثا فلسفيا، وتجسيد الحب - "الإيروس" *Eros- في كثير من
الأحيان يفسر على أنه مسألة لاهوتية، وأصبح اللوغوس الذي يربط بين الآلهة

الاتجاه الأفلاطوني في رواية "الحمار الذهبي" لأبيلوس المداوروشيد. نور الدين هالي
والبشر مثله مثل الحب وسيطا بين الآلهة والبشر. وهذا الاعتقاد ظل يرافق الفكر
اليوناني والروماني والغربي عموما، ويبرز هذا جليا في رواية أبيلوس، التي شكلت فيها
أسطورة الحب والنفوس محور الرواية وقلها النابض فقصة ترويهما عجوز في كهف
يستعمله اللصوص للاختفاء وكأن أبيلوس يضعنا أمام عرافة "دلفي" تروي لنا
نبوءتها وحكمتها. ويبدو لنا أنّ مسار أسطورة النفوس والحب التي روتها العجوز، كانت
بمثابة تمهيد للنتيجة التي ستسفر عنها النهاية الصوفية التي آلت إليها رواية الحمار
الذهبي. وبما أن القصص الرمزية تشكل عالم إدراك بالنسبة إلى المجتمعات، علينا
أن نكون مدركين بأن هذه القصة لا ينفصل ظاهرها عن فحواها حين نخبرنا عن
أحداث تقوض مشاعر الجماعة.¹⁹

لقد ألح أفلاطون كثيرا على الطبيعة الجنيّة للحب Eros، فالجن، أو الوسائط
الإلهية، هم الوسائط بين البشر والآلهة، والإيروس يعد أحد هؤلاء، وجنون الحب
يجسد عملية التنبؤ، من أجل أن تنتقل الحقائق الإلهية إلى البشر، لأن موضوع
الإيروس بصورة عامة، هو من وحي إلهي خالص، يكشف عن ماهية العلم
الأفلاطوني.²⁰

في محاورّة المأدبة أيضا يرى أفلاطون أن الحب يعد وسيطا بين الآلهة والبشر،
وهو بذلك يؤكد البعد الديني للحب، وهو بذلك، يرى أن الحب ينقل ويترجم للآلهة ما
يصدر عن البشر من صلوات وقرابين، وينقل للبشر ما يصدر عن الآلهة من أوامر.
ويرى أفلاطون كذلك أن الحقيقة تعلن من قبل أحد الوسائط الإلهية، عن طريق
التعبير عن الحقائق المرسلّة من قبل أحد الآلهة كما ورد في محاورّة
فيلابوس.²¹ (فيلابوس b 59)، إن هذه الأرواح الوسيطة تملأ الفراغ ما بين البشر والآلهة
وتربط أطراف الكل في واحد، إذ أنّها الوسيط لجميع النبوءات والفنون، ويرى أنه إذا
كان الإله لا يمتزج بالإنسان، فإنه يمكن الاتصال بينهما بالتحادث عن طريق هذه
الروح - الإيروس - سواء في اليقظة أم في النوم، ويسمى العارف بهذه الأمور رجلا
روحانيا.²²

كما أن موقف سقراط من مكانة الحب في ربط العلاقة بين العالم الإلهي والعالم
البشري يبرز في رده على الحكيمّة "ديوتيمّا Diotima" عندما قالت: "إن الحب يعد إلهًا

الاتجاه الأفلاطوني في رواية "الحمار الذهبي" لأبيلوس المداوروشيد. نور الدين هالي
مجيدا". قال لها سقراط: "إنه ليس إله، بل هو روح عظيم بين تلك الكائنات التي لها
مكانا متوسطا بين الآلهة والبشر، ولأن الإله ذاته ليس له اتصال مباشر بالبشر، فإن
كل علاقة بين السماء والأرض تكون عن طريق الوسائط الروحية".²³
كانت نهاية القصة الدرامية للحب والنفس في رواية أبيلوس نهاية سعيدة فقد
عادت النفس لزوجها الأيروس بعد أن حاولت أفروديت إلهة الجمال أن تفرق بينهما،
وحصلت النفس على صفة إلهية، ألا وهي صفة الخلود. وبالتالي فهذه الأسطورة،
قدمت مبررا لخلود النفس ولارتباطها الأبدي بالحب. يقول أبيلوس في روايته: "أمر
الإله جوبيتار الإله ميركور على الفور أن يمسك النفس بسيشي ويقودها إلى السماء،
وقدم لها قدحا مملوءا بشراب الآلهة، وقال لها: اشربي يا بسيشي، فأنت من الآن
فصاعدا خالدة ولن يكون للحب (كوبيدو) حل الرباط الذي يربطك به، فلزواجكما
هذا الخلود والدوام".²⁴

بالرغم من أن الحب هو الذي يقود النفس نحو التشبه بالنظام الإلهي، إلا أنه
يتحول إلى شر إذا ما اتجه نحو الرغبة الجامحة في المتع المادية، فيخرج عن طبيعته
الحقيقية. كذلك، فإن الحب يشمل الخلود والفناء، فمن جهة تؤدي طبيعته
الحقيقية إلى تحقيق خلود النفس، ومن جهة أخرى فإن الانحراف عن الطبيعة
الحقيقية للحب يؤدي إلى فناءها، وهذا الفناء يكون بانحطاطها في المادة.²⁵ وهذا ما
جعل لوكيوس يكون مسخا لحمار.

لقد قدم أبيلوس مفهوما أفلاطونيا للحب، يعبر عن العلاقة بين العالم المحسوس
والعالم المعقول من الناحية الفلسفية، وفي الوقت نفسه يعبر عن رؤية دينية، قائمة
على علاقة طبيعية بين البشر والعالم الإلهي. وعليه، يتضح أن التصوف هو السلوك
الذي حقق الخلاص لأبيلوس، فكان تعبيرا عن مسلك للإنسان يقوده لرؤية الحقائق
والاقتراب منها.

ويمكن القول إن قصة الحب والنفس عبرت عن القلب النابض في الرواية
بأكملها، فهي تلخص حياة الروح في المفهوم الأفلاطوني، وكذا في تصور أبيلوس،
بالانتقال من ولادة حسية عن طريق الرغبة الغريزية الجسدية، إلى ولادة روحية
تخلص النفس من أوزار الجسد، وتقودها إلى عالم الجمال الأبدي الخالد.

خاتمة

كان السؤال الجوهرى لهذا المقال حول الدلالات الفلسفية لرموز رواية الحمارة الذهبية وكيف عبر هذا العمل الأدبي عن نزعة فلسفية أفلاطونية؟ والإجابة عن هذا السؤال هي: من أهم السمات التي ميزت رواية الحمارة الذهبية، رموز ودلالات، رموز جاءت في أسلوب أدبي بديع ظلت حية طوال قرون، هي رموز مستمدة من أساطير الإغريق والرومان والمصريين القدامى، ومن صميم ثقافتهم ومعتقداتهم الدينية، أما الدلالات فهي تمثل مسحة من روح الفلسفة اليونانية، وبالتحديد فلسفة أفلاطون ونظريته في النفس، ومفهومه للفضيلة وموقفه من الجسد وبحثه في طبيعة الشر. هي فلسفة قادت أبيلوس إلى معرفة المعبود الحقيقي والمخلص النهائي من المعاناة وتحقيق الخلود في عالم السعادة الأبدية.

ومن الإجابات المتفرعة من الإجابة الأصلية نذكر منها:

1 - حافظت رواية الحمارة الذهبية في على طياتها فلسفة أفلاطون، ونظريته في النفس، ونقلتها على مَرِّ العصور إلى كل من قرأها، وجذبتهم دلالاتها وفككوا رموزها وأدركوا معانيها الفلسفية، وشكلت هذه المعاني روحاً ضمننت لهذه الرواية الخلود، وألهم لأسلوبها ومضمونها الكثير من الأدباء والمفكرين.

2 - ويمكن أن نذكر بعض الرموز ودلالاتها الواردة في رواية الحمارة الذهبية، فمن الأسماء، استعمل أبيلوس اسم سقراط واسم أرسطو للدلالة على التوجه الفلسفي السائد في عصره، وترمز الخادمة فيوتيس إلى المادة واللذة الجسدية، أما الساحرة بامفيل فتعبر عن قوى الشر، والحمارة يرمز إلى نظرية التقمص التي تطهر الجسد من الآثام، وعبرت أسطورة الحب والنفس في عمومها عن خلود النفس والرحلة تدل على الحياة البشرية المليئة بالمعاناة وبحثهم عن سبل الخلاص، أما الشاطئ فهو بر الأمان، والبحر يدل على العلم الإلهي والمنامة ترمز إلى النبوة، وتجلي إيزيس هي الخلاص، وفي هذا التجلي تم الكشف عن الهوية الحقيقية، والإجابة عن السؤال الذي طرحه لوكيوس في بداية الرواية، من هذا يا ترى؟ ليتجلى للقارئ أن الشخص محل السؤال، هو: أبيلوس المداوروشي الأفلاطوني، وتظهر الرواية سرداً لتجربته الصوفية وتعبيراً عن أفكاره الفلسفية الأفلاطونية.

- 1-Lambros Couloubaritsis, Histoire de la philosophie ancienne et médiévale, p 611.
* مدينة مداوروش ظلت مدينة أهلة إلى اليوم، وهي تابعة لولاية سوق أهراس في الشرق الجزائري. ومداوروش في تلك الفترة كانت إحدى أهم المراكز العلمية في شمال إفريقيا.
- * أوريليوس أوغسطينوس معروف باسم بالقديس أوغسطين، ولد في مدينة تاغيسستا في إقليم نوميديا التابعة لقرطاج آنذاك، وهي مدينة سوق أهراس حاليا التي تقع على الحدود الشرقية للجزائر مع تونس، كان والده وثنيًا وأمه مونيكا، مسيحية ولها تأثير قوي وواضح في حياة ابنها. درس أوغسطين الخطاب في مسقط رأسه ثم في قرطاج، وهناك عاش "أوغسطين" حياة الشَّابِّ بعيدا عن الإيمان، وفي أثناء وجوده في قرطاج، اعتنق العقيدة المانوية، لكنّه بعد ذلك اعتنق المسيحية في عام 387م، تحت تأثير الأسقف أمبروز في ميلانو الإيطالية. عاد أوغسطين إلى وطنه في شمال إفريقيا حيث عين قسيسًا، ثم أسقفًا على مدينة هيبو-عنابة حاليا - في عام 395م حتّى وفاته.
- 2-William Adlington, The Epiphany of Isis Lucius Apuleius From the Metamorphoses or The Golden Ass, Rosicrucian Digest No: 1, 2010, p9.
- 3-Karen Krumpak, Evan Hayes, apuleius_cupid_and_psyche, Published by Faenum Publishing, Ltd. First Edition, 2015, p X
- 4 - أبيلوس، الجمار الذهبي، ترجمة أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2004، ص 41.
- 5 - نفسه، ص 43
- * الترتار: هي هوة عميقة مليئة بالظلام السرمدي وهي أعماق الجحيم حسب أساطير الإغريقية.
- 6 - أفلاطون، جورجياس، (522a - 523b)، ترجمة حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970.
- 7 - Brooke Foss Westcott, Essays in history of religious thought in west, Lokd bishop of Durham. Macmillan and CO and new York, 1891, p 03.
- 8 - أبيلوس، الجمار الذهبي، ص 45
- 9 - نفسه، ص 52.
- 10- نفسه، ص 46
- 11 - نفسه، ص 63.
- 12 - نفسه ص 65.
- 13- نفسه، ص 65.

- 14 - ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1987، ص 61.
- 15 -Karen Krumpak, Evan Hayes, *apuleius_cupid_and_psyche*, Published by Faenum Publishing, Ltd. First Edition, 2015, p X.
- 16 -Synnove des Bouvrie, *Myth and Symbol, Symbolic phenomena in ancient Greek culture* University of Troms, June 4-7,1998, p 58.
- 17 -Platon, *Le Banquet*, Presses Pocket, Angleterre, (211 a - 211 b) , 1992.
- 18- Jules Chaix –Ruy, *La Pensée de Platon*, Bordas, 1957, p 166.
- * الإيروس: إله الحب ابن أفروديت ورسولها يحلق بجناحيه فوق البحار والمحيطات يرسل سهام الفرح والسعادة لكنها قد تتحول إلى ألم في العشق والهوى.
- 19 -Synnove des Bouvrie, *Myth and Symbol*, p 29.
- 20 - Emile Bréhier, *Histoire de la philosophie*, vol 01, PUF, Paris, 1943, p 120.
- 21- Victor Gold Schmidt, *La Religion de Platon*, PUF, Paris, 1949. p 36.
- 22 -Platon, *Le Banquet.*, (202d 202 e 203 a)
- 23 -Brooke Foss Westcott, *Essays in history of religious thought in west*, Lokd bishop of Durham. Macmillan and CO and new York, 1891, p 07.
- 24 - أبيلوس، *الحمار الذهبي*، ص 142.
- 25 - Léon Robin, *La Théorie Platonicienne de l'amour*, PUF, Paris, 1964, p 140.